تفسير سورة الروم

وهي مكية

للعلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

كانت الفُرْس والرُّوم في ذلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال ما يكون بين الدول المتوازنة. وكانت الفرس مشركين يعبدون النار، وكانت الروم أهل كتاب ينتسبون إلى التوراة والإنجيل، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس، فكان المؤمنون يحبون غلبتهم وظهورهم على الفرس، وكان المشركون لاشتراكهم والفرس في الشرك يحبون ظهور الفرس على الروم.

فظهر الفرس على الروم فغلبوهم غلبًا لم يُحِطْ بملكهم، بل بأدنى أرضهم،(١) ففرح

---

(١) قال البغوي: سبب نزول هذه الآية على –ما ذكره المفسرون:–أنه كان بين فارس والروم قتال، وكان المشركون يودون أن تغلب فارس الروم، لأن أهل فارس كانوا مجوسا أميين، والمسلمون يودون غلبة الروم على فارس، لكونهم أهل كتاب، فبعث كسرى جيشا إلى الروم واستعمل عليها رجلا يقال له شهريراز، وبعث قيصر جيشا إلى فارس واستعمل عليهم رجل يدعى يحفس، فالتقيا بأذرعات وبصرى، وهي أدنى الشام إلى أرض العرب والعجم، فغلبت فارس الروم، فبلغ ذلك المسلمون بمكة، فشق عليهم، وفرح به كفار مكة، وقالوا للمسلمين: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الروم، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار، فقال: فرحتم بظهور إخوانكم، فلا تفرحوا فوالله ليظهرن على فارس على ما أخبرنا بذلك نبينا، فقام إليه

بذلك مشركو مكة وحزِن المسلمون، فأخبرهم الله ووعدهم أن الروم ستغلب الفرس:

{فِي بِضْعِ سِنِينَ}: تسعٍ أو ثمانٍ ونحو ذلك، مما لا يزيد على العشر، ولا ينقص عن الثلاث، وأن غلبة الفرس للروم ثم غلبة الروم للفرس كل ذلك بمشيئته وقدره، ولهذا قال:

{للهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ}، فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر.

{وَيَوْمَئِذٍ}، أي: يوم يغلِب الروم الفرس ويقهَرونهم:

أبي بن خلف الجمحي فقال: كذبت، فقال: أنت أكذب يا عدو الله، فقال: اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه –والمناحبة: المراهنة–على عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت، وإن ظهرت فارس غرمت ففعلوا وجعلوا الأجل ثلاث سنين فجاء أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك، وذلك قبل تحريم القمار، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما هكذا ذكرت إنما البضع ما بين الثلاثة إلى التسع، فزايده في الخطر وماده في الأجل، فخرج أبو بكر ولقي أبيا، فقال: لعلك ندمت؟ قال: لا فتعال أزايدك في الخطر وأمادك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص ومائة قلوص إلى تسع سنين، وقيل إلى سبع سنين، قال قد فعلت: فلما خشي أبي بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه فلزمه، وقال: إني أخاف أن تخرج من مكة فأقم لي كفيلا فكفل له ابنه عبد الله بن أبي بكر، فلما أراد أبي بن خلف أن يخرج إلى حد أتاه عبد الله بن أبي بكر فلزمه، فقال: لا والله لا أدعك حتى تعطيني كفيلا فأعطاه كفيلا. ثم خرج إلى أحد ثم رجع أبي بن خلف فمات بمكة من جراحته التي جرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بارزه، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، وذلك عند رأس سبع سنين من مناحبتهم. وقيل: كان يوم بدر. قال الشعبي: لم تمض تلك المدة التي عقدوا المناحبة بين أهل مكة، وفيها صاحب، قمارهم أبي بن خلف، والمسلمون وصاحب قمارهم أبو بكر، وذلك قبل تحريم القمار، حتى غلبت الروم فارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنو الرومية فقمر أبو بكر أبيا وأخذ مال الخطر من ورثته، وجاء به يحمله إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "تصدق به". اهـ

{يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ} أي: يفرحون بانتصارهم على الفرس، وإن كان الجميع كفارًا، ولكن بعض الشر أهون من بعض، ويحزن يومئذ المشركون.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ} الذي له العزة التي قهر بها الخلائق أجمعين يؤتي المُلْك مَن يشاء وينزِع الملك ممن يشاء ويُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء.

{الرَّحِيمُ} بعباده المؤمنين حيث قيض لهم من الأسباب التي تسعدهم وتنصرهم ما لا يدخل في الحساب.

﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾

{وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ}، فتيقنوا ذلك، واجزِموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه.

فلما نزلت هذه الآيات التي فيها هذا الوعد صدَّق بها المسلمون، وكفر بها المشركون، حتى تراهَنَ بعضُ المسلمين وبعضُ المشركين على مدة سنين عيَّنوها، فلما جاء الأجل الذي ضربه الله انتصر الروم على الفرس، وأَجْلَوْهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله.

وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها، ووُجدتْ في زمانِ مَن أخبرهم الله بها من المسلمين والمشركين.

{وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} أن ما وعد الله به حق، فلذلك يوجد فريق منهم يكذِّبون بوعد الله، ويكذِّبون آياته. وهؤلاء الذين لا يعلمون، أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما:

{يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا}، فينظرون إلى الأسباب ويجزِمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئًا، فهم واقفون مع الأسباب غير ناظرين إلى مسبِّبها المتصرف فيها.

{وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}، قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها وسَعَتْ وأَقْبَلَتْ بها وأَدْبَرَتْ وغفلتْ عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يَرُوعُها ويُزْعِجُها، وهذا علامة الشقاء وعنوان الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفِطْنَة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحيِّر العقولَ ويُدْهِشُ الألباب.

وأظهروا من العجائب الذَّرِّيَّة والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية ما فاقوا به وبرزوا وأُعْجِبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزًا عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم وأشدُّهم غفلة عن آخرتهم وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رآهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخبطون، وفي ضلالهم يَعْمَهُون، وفي باطلهم يترددون، {نَسُوا اللهَ فأنساهم أنفسهم أولـئك هم الفاسقون} [الحشر:١٩].

ثم نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرِها وما حرِموا من العقل العالي، فعرفوا أن الأمر لله والحكم له في عباده، وإنْ هو إلا توفيقه وخذلانه، فخافوا ربهم، وسألوه أن يُتِمَّ لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان حتى يصلوا إليه، ويَحِلُّوا بساحته.

وهذه الأمور لو قارنها الإيمانُ وبُنيتْ عليه لأثمرت الرُّقِيَّ العالي والحياةَ الطيبة، ولكنها لما بُني كثير منها على الإلحاد لم تُثْمِرْ إلا هبوطَ الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾

{أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا}، أي: أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسل الله ولقائه:

{فِي أَنْفُسِهِمْ} فإن في أنفسهم آيات يعرفون بها أن الذي أوجدهم من العدم سيُعيدهم بعد ذلك، وأن الذي نقلهم أطوارًا من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آدمي قد نُفخ فيه الروح، إلى طفل، إلى شاب، إلى شيخ، إلى هرم، غير لائق أن يتركهم سُدًى مُهْمَلين، لا يُنْهَون ولا يُؤْمَرون، ولا يُثابون ولا يُعاقبون.

{مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالحَقِّ}، أي: لِيَبْلُوَكم أيكم أحسن عملًا.

{وَأَجَلٍ مُسَمًّى}، أي: مؤقتٍ بقاؤهما إلى أجل تنقضي به الدنيا وتجيء به القيامة وتبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض والسماواتُ.

{وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ}، فلذلك لم يستعدوا للقائه، ولم يصدِّقوا رسله التي أخبرت به، وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة قد دلت على البعث والجزاء، ولهذا نبَّههم على السير في الأرض والنظرِ في عاقبة الذين كذَّبوا

رسلهم وخالفوا أمرهم ممن هم أشد من هؤلاء قوةً وأكثر آثارًا في الأرض من بناء قصور ومصانع، ومن غَرْس أشجار، ومِن زَرْعٍ وإجراء أنهار، فلم تُغْنِ عنهم قُوَّتُهم، ولا نفعتْهم آثارُهم حين كذَّبوا رسلهم الذين جاءوهم بالبينات الدالات على الحق وصحة ما جاءوهم به، فإنهم حين ينظرون في آثار أولئك لم يجدوا إلا أممًا بائدة وخَلْقًا مُهْلَكين، ومنازلَ بعدهم مُوْحَشَةً. وذَمٌّ من الخلق عليهم متتابعٌ، وهذا جزاء معجَّل نموذج للجزاء الأخروي ومبتدأٌ له. وكل هذه الأمم المُهْلَكة لم يَظْلِمْهم الله بذلك الإهلاك، وإنما ظلموا أنفسهم وتسبَّبوا في هلاكها.

{ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْأَى}، أي: الحالة السيئة الشنيعة، وصار ذلك داعيًا لهم لأن:

{كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ}، فهذا عقوبة لسوئهم وذنوبهم، ثم ذلك الاستهزاء والتكذيب يكون سببًا لأعظم العقوبات وأعضل المَثُلات.

﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ ﴾

يخبر تعالى أنه المتفرد بإبداء المخلوقات، ثم يعيدهم، ثم إليه يرجعون بعد إعادتهم، ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا ذكر جزاء أهل الشر، ثم جزاء أهل الخير، فقال:

{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ}، أي: يقوم الناس لرب العالمين، ويرون القيامة عيانًا، يومئذ:

{يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ}، أي: ييأسون من كل خير، وذلك أنهم ما قدَّموا لذلك اليوم إلا الإجرام، وهي الذنوب، مِن كفر وشرك ومعاص. فلما قدَّموا أسباب العقاب، ولم يَخْلِطوها بشيء من أسباب الثواب، أَيِسُوا وأَبْلَسُوا وأفلسوا، وضل عنهم ما كانوا يفترونه، من نفع شركائهم، وأنهم يشفعون لهم، ولهذا قال:

{وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ} التي عبدوها مع الله:

{شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ}، تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله، وتبرأ المعبودون، وقالوا: {تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} [القصص:٦٣]، والتعنوا وابتعدوا.(٢)

---

(٢) {وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ} [العنكبوت:٢٥].

وفي ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر، كما افترقت أعمالهم في الدنيا:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦ ﴾

{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}: آمنوا بقلوبهم، وصدَّقوا ذلك بالأعمال الصالحة.

{فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ}، فيها سائر أنواع النبات وأصناف المُشْتَهَيَات.

{يُحْبَرُونَ}، أي: يُسَرَّون وينعَّمون بالمآكل اللذيذة والأشربة والحور الحِسان والخدم والولدان والأصوات المُطْرِبات، والسماع المشجي، والمناظر العجيبة، والروائح الطيبة، والفرح والسرور واللذة والحبور، مما لا يقدر أحد أن يصفه.

{وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} وجحدوا نعمه وقابلوها بالكفر.

{وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} التي جاءتهم بها رسلنا.

{فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ} فيه، قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم، واطَّلع العذاب الأليم على أفئدتهم، وشوى الحميمُ وجوهَهم، وقطَّع أمعاءهم، فأين الفَرْق بين الفريقين، وأين التساوي بين المنعَّمين والمعذَّبين!؟

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

هذا إخبار عن تنزهه عن السوء والنقص، وتقدُّسُه عن أن يماثله أحد من الخلق، وأمرٌ للعباد أن يسبِّحوه حين يُمْسُون، وحين يصبحون، ووقت العشي، ووقت الظهيرة. فهذه الأوقات الخمسة أوقات الصلوات الخمس،(٣) أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك الواجبُ منه، كالمشتملة عليه الصلواتُ الخمس، والمستحبُ، كأذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات، وما يقترن بها من النوافل، لأن هذه الأوقات التي اختارها الله لأوقات المفروضات هي أفضل من غيرها، فالتسبيح والتحميد فيها والعبادة فيها أفضل من غيرها، بل العبادة وإن لم تشتمل على قول "سبحان الله"، فإن الإخلاص فيها تنزيهٌ لله بالفعل أن يكون له شريكٌ في العبادة، أو أن يستحق أحد من الخلق ما يستحقه من الإخلاص والإنابة.

---

(٣) قال الإمام البغوي ـ رحمه الله ـ : {فسبحان الله} أي: سبحوا الله، ومعناه: صلوا لله، {حين تُمْسُون} أي: تدخلون في المساء، وهو صلاة المغرب والعشاء، {وحين تصبحون} أي: تدخلون في الصباح، وهو صلاة الصبح. {وله الحمد في السماوات والأرض}. قال ابن عباس: يحمده أهل السماوات والأرض ويصلون له، {وعَشِيًّا}، أي: صلوا لله عَشِيًّا، يعني: صلاة العصر، {وحين تُظْهِرون}، تدخلون في الظهيرة، وهو صلاة الظهر. قال نافع بن الأزرق لابن عباس: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم، وقرأ هاتين الآيتين، وقال: جمعت الآية الصلواتِ الخمسَ ومواقيتَها. اهـ [وأخرجه الطبري]

{يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ}، كما يُخرج النباتَ من الأرض الميتة، والسُّنْبُلَةَ من الحَبَّة، والشجرة من النَّوَاة، والفَرْخَ من البيضة، والمؤمنَ من الكافر، ونحو ذلك.

{وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الحَيِّ} بعكس المذكور.

{وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}، فيُنْزِلُ عليها المطرَ، وهي ميتة هامدة، فإذا أنزل عليها الماء، {اهتزَّتْ وربَتْ وأنبتت من كل زوجٍ بَهيج} [الحج:٥].

{وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ} من قبوركم، فهذا دليل قاطع وبرهان ساطع أن الذي أحيا الأرض بعد موتها، فإنه يحيي الأموات، فلا فرق في نظر العقل بين الأمرين، ولا مُوْجِبَ لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

هذا شروع في تعداد آياته الدالة على انفراده بالإلهية، وكمال عظمته، ونفوذ مشيئته، وقوة اقتداره، وجميل صُنْعِه، وسعة رحمته وإحسانه، فقال:

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ}، وذلك بخلق أصل النسل: آدم عليه السلام.

{ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}، أي: الذي خلقكم من أصل واحد، ومادة واحدة، وبثكم في أقطار الأرض وأرجائها، ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل وبثكم في أقطار الأرض هو الرب المعبود، الملك المحمود، والرحيم الودود، الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت.

{وَمِنْ آيَاتِهِ} الدالة على رحمته، وعنايته بعباده، وحكمته العظيمة، وعلمه المحيط:

{أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} تناسبكم وتناسبونهن، وتشاكلكم وتشاكلونهن.

{لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً}، بما رتَّب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة، فحصل بالزوجة الاستمتاعُ واللذة، والمنفعةُ بوجود الأولاد وتربيتِهم، والسكونُ إليها، فلا تجد بين أحد في الغالب مثلَ ما بين الزوجين من المودة والرحمة.

{إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}، يُعْمِلون أفكارهم، ويتدبرون آياتِ الله، وينتقلون من شيء إلى شيء.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

والعَالِمُون هم أهل العلم الذين يفهمون العبر ويتدبرون الآيات. والآيات في ذلك كثيرة، فمن آيات خلق السماوات والأرض وما فيهما: أن ذلك دال على عظمة سلطان الله، وكمال اقتداره الذي أوجد هذه المخلوقاتِ العظيمةَ، وكمال حكمته لما فيها من الإتقان، وسعة علمه، لأن الخالق لا بد أن يعلم ما خلقه، {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ} [الملك: ١٤]، وعمومِ رحمته وفضله لما في ذلك من المنافع الجليلة، وأنه المريد الذي يختار ما يشاء لما فيها من التخصيصات والمزايا، وأنه وحده الذي يستحق أن يُعْبَدَ ويُوَحَّدَ؛ لأنه المنفرد بالخلق، فيجب أن يُفْرَد بالعبادة، فكل هذه أدلة عقلية نبَّه الله العقول إليها، وأمرها بالتفكر واستخراج العبرة منها.

وكذلك في اختلاف {أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ}، على كثرتكم وتباينكم، مع أن الأصل واحد، ومخارجَ الحروف واحدة، ومع ذلك لا تجد صوتين متفقين من كل وجه، ولا لونين متشابهين من كل وجه، إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز، وهذا دال على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته.

ومن عنايته بعباده ورحمته بهم: أن قدَّر ذلك الاختلاف لئلَّا يقعَ التشابُهُ، فيحصلَ الاضطرابُ، ويفوتَ كثيرٌ من المقاصد والمطالب.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٢٣ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٤﴾

{يَسْمَعُونَ}، أي: سماعَ تدبُّرٍ وتعقُّلٍ للمعاني والآيات في ذلك. إن ذلك دليل على رحمة الله تعالى، كما قال: {وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [القصص:٧٣]، وعلى تمام حكمته، إذ حكمته اقتضت سكون الخلق في وقت ليستريحوا به، ويستجموا، وانتشارهم في وقت، لمصالحهم الدينية والدنيوية، ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم، والمنفرد بذلك هو المستحق للعبادة.

{وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}، أي: ومن آياته أن ينزّل عليكم المطر الذي تحيا به البلادُ والعبادُ، ويريكم قبل نزوله مقدّماتِه من الرعد والبرق الذي يُخاف ويُطْمَع فيه.

{إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَاتٍ} دالة على عموم إحسانه، وسعة علمه، وكمال إتقانه، وعظيم حكمته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها.

{لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، أي: لهم عقول تَعْقِل بها ما تسمعه وتراه وتحفظه، وتستدل به عل ما جُعل دليلا عليه.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

أي: ومن آياته العظيمة أن قامت السماوات والأرض واستقرَّتا وثبتتا بأمره، فلم تتزلزلا، ولم تَسْقُطِ السماءُ على الأرض، فقدرته العظيمة التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض إذا هم يخرجون: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [غافر:٥٧].

{وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، الكل خلقه ومماليكه، المتصرف فيهم من غير منازع، ولا معاون، ولا معارض، وكلهم قانتون لجلاله خاضعون لكماله.

{وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ}، أي: الإعادة للخلق بعد موتهم:

{أَهْوَنُ عَلَيْهِ} من ابتداء خلقهم، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول، فإذا كان قادرًا على الابتداء الذي تُقِرُّون به، كانت قدرته على الإعادة التي هي أهون أولى وأولى.

ولمّا ذكر من الآيات العظيمة ما به يَعتبر المعتبرون ويتذكر المؤمنون ويتبصر المهتدون، ذكر الأمر العظيم والمطلب الكبير، فقال:

{وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، وهو كل صفة كمال، والكمال من تلك الصفة، والمحبةُ والإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين والذكرُ الجليل والعبادة منهم. فالمثل الأعلى هو وصفه الأعلى، وما ترتب عليه. ولهذا

كان أهل العلم يستعملون في حق الباري: قياسَ الأولى، فيقولون: كل صفة كمال في المخلوقات، فخالقها أحقُّ بالاتصاف بها على وجهٍ لا يشاركه فيها أحد، وكل نقص في المخلوق ينزَّه عنه فتنزيه الخالق عنه من بابٍ أولى وأحرى.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ}، أي: له العزة الكاملة، والحكمة الواسعة، فعزته أوجد بها المخلوقات، وأظهر المأمورات، وحكمته أتقن بها ما صنعه وأحسن فيها ما شرعه.

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لقبح الشرك وتهجينه مثلا من أنفسكم، لا يحتاج إلى حل وترحال وإعمال الجِمال.

{هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ}، أي: هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشارككم في رزقكم، وترون أنكم وهم فيه على حدٍ سواء.

{تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ}، أي: كالأحرار الشركاء في الحقيقة الذين يخاف من قسمه واختصاص كل شيء بحاله؟ ليس الأمر كذلك، فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم شريكًا لكم فيما رزقكم الله تعالى. هذا، ولستم الذين خلقتموهم ورزقتموهم، وهم أيضًا مماليك مثلكم، فكيف ترضون أن تجعلوا لله شريكًا من خلقه وتجعلونه بمنزلته، وعديلًا له في العبادة، وأنتم لا ترضون مساواة مماليككم لكم؟ هذا من أعجب الأشياء، ومن أدلِّ شيءٍ على سَفَهِ مَن اتخذ شريكًا مع الله، وأن ما اتخذه باطل مضمحل، ليس مساويًا لله، ولا له من العبادة شيء.

{كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ} بتوضيحها بأمثلتها.

{لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} الحقائق، ويعرفون. وأما من لا يعقل، فلو فُصِّلَت له الآيات، وبيِّنت له البينات، لم يكن له عقل يبصر به ما تبيَّن، ولا لُبٌّ يعقل به ما توضَّح، فأهل

العقول والألباب هم الذين يُساق إليهم الكلام ويوجَّه الخطاب.

وإذا عُلم من هذا المثال أن من اتخذ من دون الله شريكًا يعبده ويتوكل عليه في أموره، فإنه ليس معه من الحق شيءٌ، فما الذي أوجب له الإقدامَ على أمر باطل توضَّح له بطلانه وظهر برهانه؟ لقد أوجب لهم ذلك اتباعُ الهوى، فلهذا قال:

{بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، هَوِيَتْ أنفسهم الناقصة التي ظهر من نقصانها ما تعلق به هواها، أمرًا يَجْزِمُ العقلُ بفساده والفطر برده بغير علمٍ دلَّهم عليه ولا برهانَ قادهم إليه.

{فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ}، أي: لا تَعْجَبوا من عدم هدايتهم، فإن الله تعالى أضلَّهم بظلمهم، ولا طريق لهدايةِ مَن أضلَّ الله؛ لأنه ليس أحد معارضًا لله أو منازعًا له في ملكه.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال وإقامة دينه، فقال:

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ}، أي: انصبه ووجهه إلى الدين الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تتوجه بقلبك وقصدك وبدنك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة، كالصلاة والزكاة والصوم والحج ونحوها؛ وشرائِعه الباطنة كالمحبة والخوف والرجاء والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة بأن تعبد الله فيها كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وخص الله إقامة الوجه لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، ويترتب على الأمرين سَعْيُ البدن، ولهذا قال:

{حَنِيفًا}، أي: مقبلًا على الله في ذلك، معرضًا عما سواه. وهذا الأمر الذي أمرناك به هو:

{فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}، ووضع في عقولهم حُسْنَها واستقباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وَضَعَ اللهُ في قلوب الخلق كلهم الميلَ إليها؛ فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثارَ الحق، وهذا حقيقة الفطرة. ومن خرج عن هذا الأصل، فلعارضٍ عرض لفطرته أفسدها، كما قال النبي صلى الله

عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه».(٤)

{لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}، أي: لا أحد يبدل خلق الله، فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله.

{ذلِكَ} الذي أمرنا به.

{الدِّينُ الْقَيِّمُ}، أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الله وإلى كرامته، فإن من أقام وجهه للدين حنيفًا، فإنه سالِكُ الصراط المستقيم في جميع شرائعه وطرقه.

{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}، فلا يتعرَّفون الدين القيم، وإن عرفوه لم يسلكوه.

{مُنِيبِينَ إِلَيْهِ}، وهذا تفسيرٌ لإقامة الوجه للدين، فإن الإنابة إنابة القلب وانجذاب دواعيه لمراضي الله تعالى، ويَلْزَمُ من ذلك: حَمْلُ البدن بمقتضى ما في القلب، فشمل ذلك العباداتِ الظاهرةَ والباطنة، ولا يتم ذلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة، فلذلك قال:

{وَاتَّقُوهُ}، فهذا يشمل فعل المأمورات وترك المنهيات. وخص من المأمورات: الصلاةَ، لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى، لقوله تعالى:

{وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: ٤٥]، فهذا إعانتها على التقوى، ثم قال: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} [العنكبوت: ٤٥]، فهذا حثها على

---

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الإنابة.[٥]

وخص من المنهيات: أصلها والذي لا يُقْبَلُ معه عملٌ، وهو الشرك، فقال:

{وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، لكون الشرك مضادًّا للإنابة التي روحها الإخلاص من كل وجه. ثم ذكر حالة المشركين مهجِّنًا لها ومقبِّحًا، فقال:

{مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ}، مع أن الدين واحد، وهو إخلاص العبادة لله وحده، وهؤلاء المشركون فرقوه، منهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم يهودٌ، ومنهم نصارى. ولهذا قال:

{وَكَانُوا شِيَعًا}، أي: كل فرقة من فرق الشرك تألَّفتْ وتعصَّبتْ على نصر ما معها من الباطل ومنابذةِ غيرهم ومحاربتهم.

{كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ} من العلوم المخالِفة لعلوم الرسل:

{فَرِحُونَ} به، يحكمون لأنفسهم بأنه الحق، وأن غيرهم على باطل، وفي هذا تحذيرٌ للمسلمين من تشتُّتهم وتفرُّقهم فِرَقًا كل فريق يتعصب لما معه من حق وباطل، فيكونون مشابهين بذلك للمشركين في التفرق، بل الدين واحد، والرسول واحد، والإله واحد. وأكثر الأمور الدينية وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة. والأُخُوَّة الإيمانية قد عَقَدها الله ورَبَطها أتم رَبْطٍ، فما بالُ ذلك كله يُلْغَى ويُبْنَى التفرُّقُ والشِّقاقُ بين المسلمين على مسائلَ خفيَّةٍ أو فروعٍ خلافيَّةٍ، يضلِّل بها

---

(٥) الظاهر أن المؤلف العلامة السعدي رحمه الله أراد تفسير قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}، التي من سورة الروم هنا، فسبق قلمه فجاء ببعض الآية الشبيهة بها من سورة العنكبوت بدلا منها من غير قصد، والله أعلم.

بعضهم بعضًا، ويتميز بها بعضهم عن بعض!؟ فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان وأعظم مقاصده التي كاد بها للمسلمين؟ وهل السعي في جمع كلمتهم وإزالة ما بينَهم من الشِّقاق المبنيِّ على ذلك الأصل الباطل إلا من أفضل الجهاد في سبيل الله وأفضل الأعمال المقرِّبة إلى الله؟[٦]

ولـمَّا أمر تعالى بالإنابة إليه، وكان المأمور بها هي الإنابة الاختيارية التي تكون في حَالَي العسر واليسر والسعة والضيق، ذكر الإنابة الاضطرارية التي لا تكون مع الإنسان إلا عند ضيقه وكربه، فإذا زال عنه الضيقُ نبذها وراء ظهره، وهذه غير نافعة، فقال:[٧]

---

(٦) قال تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ١١٤].

(٧) إبراز مثل هذه المناسبة الخفية بين الآيتين من أدق علم التفسير، هو ودليلٌ على بصيرة المؤلف في هذا الفن، فلا ينكر إمامته في التفسير إلا من لا يعرفه أو لا يعرف التفسير أصلا. رحم الله الإمام السعدي رحمة واسعة.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾

{وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ}: مرض، أو خوف من هلاك ونحوُهُ:

{دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ}، ونسُوا ما كانوا به يشركون في تلك الحال، لعِلْمِهم أنه لا يكشف الضر إلا الله.(٨)

{ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً}، شفاهم من مرضهم، وآمنهم من خوفهم:

{إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ} يَنْقُضُون تلك الإنابة التي صدرتْ منهم، ويشركون به مَن لا دَفَعَ عنهم ولا أغنى، ولا أفقر ولا أغنى، وكلُّ هذا كفرٌ بما آتاهم الله ومنَّ به عليهم حيث أنجاهم وأنقذهم من الشدة، وأزال عنهم المشقة، فهلَّا قابلوا هذه النعمةَ الجليلةَ بالشكر والدوام على الإخلاص له في جميع الأحوال!؟

{أَمْ أَنزلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا}، أي: حجة ظاهرة:

{فَهُوَ}، أي: ذلك السلطان:

---

(٨) قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [يونس: ٢٢-٢٣]، وقال تعالى: {ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ * ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} [النحل: ٥٣-٥٤].

{يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ}، ويقول لهم: اثْبُتوا على شرككم، واستمروا على شكِّكم، فإن ما أنتم عليه هو الحق، وما دعتْكم الرسلُ إليه باطلٌ.

فهل ذلك السلطان موجود عندهم، حتى يُوجِبَ لهم شدَّةَ التمسُّكِ بالشرك؟ أم البراهينُ العقلية والسمعية، والكتب السماوية، والرسل الكِرام، وسادات الأنام، قد نهَوا أشدَّ النهي عن ذلك، وحذَّروا مِن سلوك طُرُقِه المُوْصِلة إليه، وحكموا بفساد عقلِ ودينِ مَنِ ارتكبه؟

فشرك هؤلاء بغير حجة ولا برهان، وإنما هو أهواء النفوس، ونزغات الشيطان.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

يخبر تعالى عن طبيعة أكثر الناس في حالَيِ الرخاء والشدة: أنهم إذا أذاقهم الله منه رحمة، من صحة، وغنى، ونصر، ونحو ذلك، فرحوا بذلك فَرَحَ بَطَرٍ، لا فرح شكر وتبجُّحٍ بنعمة الله.(٩)

{وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ}، أي: حالٌ تَسُوؤُهم، وذلك:

{بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ}، من المعاصي:

{إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ}: يَيْأَسُون من زوال ذلك الفقر والمرض ونحوه، وهذا جهل منهم وعدم معرفة.

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ}، فالقنوط بعد ما عُلم أن الخير والشر من الله، والرزقَ سَعَتَه وضِيقَه من تقديره، ضائع ليس له محل! فلا تنظر أيها العاقلُ لمجرَّدِ الأسباب، بَلِ اجعل نظرك لمسبِّبها، ولهذا قال:

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}، فهم الذين يعتبرون بَسْطَ الله لمن يشاء وقَبْضَه، ويعرفون بذلك حكمة الله ورحمته وجُوْدَه وجَذْبَ القلوب لسؤاله في جميع مطالب الرزق.

---

(٩) وفرح البطر كما في قوله: {لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} [القصص: ٧٦]؛ والفرح الآخر المأمور به: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: ٥٨].

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾

أي: فأعط القريب منك على حسب قربه وحاجته حقه الذي أوجبه الشارع أو حض عليه من النفقة الواجبة، والصدقة، والهدية، والبر، والسلام، والإكرام، والعفو عن زلته، والمسامحة عن هفوته. وكذلك آت المسكين الذي أسكنه الفقر والحاجة ما تُزيل به حاجتَه وتدفع به ضرورته، من إطعامه وسقيه وكسوته.

{وَابْنَ السَّبِيلِ} الغريب المنقطع به في غير بلده الذي في مَظِنَّةِ شدة الحاجة، لأنه لا مال معه ولا كسب، قد دبر نفسه به في سفره، بخلاف الذي في بلده، فإنه وإن لم يكن له مال، ولكن لا بد في الغالب أن يكون في حرفة أو صِناعة ونحوها تسد حاجته، ولهذا جعل الله في الزكاة حصَّةً للمسكين وابن السبيل.

{ذلِكَ}، أي: إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل:

{خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ} بذلك العمل: {وَجْهَ اللهِ}، أي: خير غزير وثواب كثير، لأنه من أفضل الأعمال الصالحة والنفع المتعدي الذي وافق محله المقرون به الإخلاص. فإن لم يُرِدْ به وجه الله لم يكن خيرًا للمعطِي، وإن كان خيرًا ونفعًا للمعطَى، كما قال تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ} [النساء: ١١٤]، مفهومها أن هذه المُثْبَتَاتِ خير لنفعها المتعدي، ولكن من يفعل ذلك {ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا}.

وقوله: {وَأُولـئِكَ} الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله:

{هُمُ الْمُفْلِحُونَ} الفائزون بثواب الله، الناجون من عقابه.

ولما ذكر العمل الذي يُقْصَدُ به وجهه من النفقات، ذكر العمل الذي يقصد به مقصدٌ دنيويٌّ، فقال:

{وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ}، أي: ما أعطيتم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم، وقصدُكم بذلك أن يربو، أي: يزيد في أموالكم بأن تعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها، فهذا العمل لا يربو أجره عند الله، لكونه معدومَ الشرط الذي هو الإخلاص. ومِثْلُ ذلك العمل: الذي يراد به الزيادة في الجاه والرياء عند الناس فهذا كله لا يربو عند الله.

{وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ}، أي: مال يطهركم من الأخلاق الرذيلة، ويطهر أموالكم من البخل بها، ويزيد في دفع حاجة الْمُعْطَى.

{تُرِيدُونَ} بذلك {وَجْهَ اللَّهِ فَأُولـئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}، أي: المضاعف لهم الأجر الذين تربو نفقاتُهم عند الله ويُرْبِيها الله لهم حتى تكون شيئًا كثيرًا.

ودل قوله: {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ} أن الصدقة مع اضطرارِ مَن يتعلق بالمنفق، أو مع دَيْنٍ عليه لم يقضه، ويقدم عليه الصدقة: أن ذلك ليس بزكاة يؤجر عليه العبد، ويُرَدُّ تصرُّفُه شرعًا، كما قال تعالى في الذي يُمدح: {الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى}، فليس مجردُ إيتاء المال خيرًا حتى يكون بهذه الصفة، وهو: أن يكون على وجه يتزكى به المؤتي.

Islamic **Summer Courses**

1439 | 2018

Instructor: Ustādh **Mūsá Richardson**

A graduate of Umm al-Qurá University in Makkah, Saudi Arabia, Ustādh Mūsá spent 16 years in Saudi Arabia learning from Islamic scholars. He has authored numerous works and online publications and is conducting his 4th summer courses in Toronto.

Stream 01 **Jurisprudence**

The Fiqh Rulings of Marriage and Divorce

Nightly from 1930-2030 ET

Stream 02 **Creed**

Essentials of Islamic Theology

Nightly from 2115-2200 ET

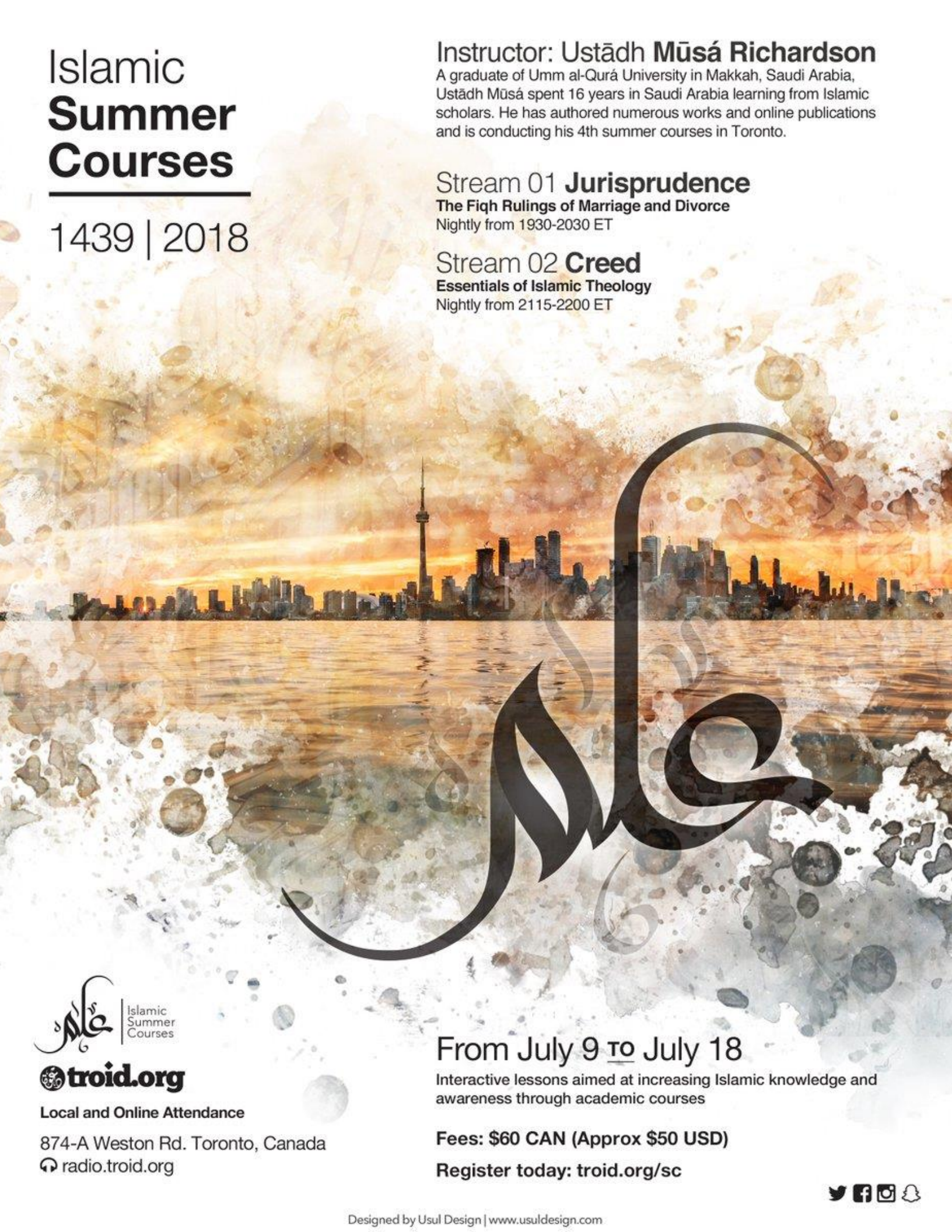

Islamic Summer Courses

troid.org

Local and Online Attendance

874-A Weston Rd. Toronto, Canada

radio.troid.org

From July 9 TO July 18

Interactive lessons aimed at increasing Islamic knowledge and awareness through academic courses

Fees: $60 CAN (Approx $50 USD)

Register today: troid.org/sc

Designed by Usul Design | www.usuldesign.com